الدعاء في حياة المسلم: أهميته والحاجة إليه

د. يوسف إبراهيم محمد أبو سيل(*)

مُقَدِّمَة:

الحمد الله العليم الحكيم الرءوف الرحيم نحمده على نعمه التي لا تحصى، وآلائه التي لا تستقصى، ومن أجلِّها نعمة الإيمان، وتفضَّله علينا بأن جعلنا من أمة خير الأنام ﷺ، خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، أمة وسط تهتدي بالقرآن، وتقوم بالغاية التي من أجلها خلقت بعد أن تعرف ربها فتعبده بالخضوع والاستسلام لما شرعه لها.

إن الإنسان مهما امتلك من أسباب القوة؛ فهو يقر بضعفه وحاجته إلى خالقه القوي العزيز الذي هو أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه ووسيلته إلى بارئه الدعاء الذي هو سلاح المؤمن. والسلاح إنما يكون بضاربه، وهذا الضارب لا بُدَّ له من معرفة تامة بهذا السلاح حتى يبلغ به الغاية المنشودة، ولهذا أردت في هذا البحث المتواضع أن أقف على حقيقة الدعاء، ولمن يكون، وكيف يكون، والتعرُّف على الأزمنة والأمكنة التي هي مظنة إجابة الدعوة، وشروط إجابة الدعوة ثم التعرف على نماذج من الصالحين الذين صدقوا الله فصدقهم وأجاب دعاءهم .

وأرجو بعملي هذا أن أكون قد أسهمت في هداية بعض المؤمنين إلى توجيه دينهم، كما أسأله تعالى أن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به

(*) أستاذ مساعد بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ـ فرع الأُبيض.

ويثيب كل من أسهم معي في جمع مادته وطباعتها ونشرها إلى يوم الدين.كما أرجو ممن قرأه ووجد فيه نقصاً أو عيباً أن يسعى لتصويبه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول
حقيقة الدعاء وتعريفه

المطلب الأول: الدعاء في اللُّغة

ذكر الراغب الأصفهاني: (دعا: الدُّعاءُ كالنِّداء: إلا أنَّ النداء قد يقالُ بيا وأيا ونحو ذلك من غير أن يُضمَّ إليه الاسمُ، والدُّعاء لا يكاد يقالُ إلاَّ إذا كان معه الاسم نحو: يا فلانُ. وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، قال تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة: ١٧١]، ويستعمل استعمال التسمية نحو: دعوت ابني زيداً أي سميته، قال تعالى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣]، حَثًّا على تعظيمه، وذلك مخاطبَةُ من كان يقول: يا محمد. ودعوته إذا سألته وإذا استغثته, قال تعالى ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [البقرة: ٦٨] أي سَلْه وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ

تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١] تنبيهاً أنكم إذا أصابتكم شدة لم تفزعوا إلا إليه, والدُّعاء إلى الشيء: الحث على قصده. والدَّعوى: الادِّعاءُ، قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ ﴾ [الأعراف: ٥]، والدَّعوى: الدُّعاء، قال تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠][1].

جاء في "لسان العرب": (الدُّعاء واحد الأدعية، وأصله دُعاو، لأنَّه من دَعَوت, إلا إن الواو لما جاءت بعد الألف هُمِزت قال تعالى ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣]، قال أبو اسحق: يقول: ادعوا من استدعيتم طاعته ورجوتم معونته في الإتيان بسورة مثله وقال الفراء: ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي استغيثوا بهم. وقد يكون الدعاء عبادةً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقوله بعد ذلك ﴿ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، يقول: ادعوهم في النوازل التي تنزل بكم إن كانوا آلهة كما تقولون يجيبوا دعاءكم فإن دعوتموهم فلم يجيبوكم فأنتم كاذبون)[2].

(معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فضرب منها توحيدُه، والثناء عليه، كقولك: يا الله لا إله إلا أنت. وكقولك: ربَّنا لك الحمد. وإذا قلته فقد دعوته

(١) الراغب الأصفهاني: مغجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) لسان العرب، ٢٥٩/٤.

بقولك: ربنا، ثم أتيت بالثناء والتوحيد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]. فهذا ضرب من الدعاء.

والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يُقرِّب منه، كقولك: اللهم اغفر لنا.

والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا، كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً, وإنما سمي هذا جميعه دعاء لأنَّ الإنسان يُصَدّر في هذه الأشياء بقوله: يا رب يا رحمن، فلذلك سُمِّي دعاء)[1].

المطلب الثاني: الدعاء في الاصطلاح

(الدَعَوات بفتح المهملتين جمع الدَّعوة بفتح أوله بمعنى الدُّعاء، وهو طلب الأدنى بالقول من الأعلى شيئاً على جهة الاستكانة)[2].

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري: (معنى الدعاء مسألة العبدِ ربَّه ما وعد أولياءه على طاعتهم بعملهم بطاعته)[3].

وذكر صاحب "التفسير الكبير": (وحقيقة الدعاء استدعاء العبد ربه جل جلاله واستمداده إياه المعونة)[1].

---

(١) المصدر السابق، ٣٥٩/٣.

(٢) تحفة الاحوذي بشرح جامع الترمذي، ٢٠٩/٩.

(٣) جامع البيان عن تأويل آية القرآن، لإمام المفسرين محمد بن جرير الطبري، ٩٣/٢.

وجاء في تعريفه: (دعوت الله ادعوه: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير)[٢].

وجاء في "سبل السلام": (اعلم أنَّ الدعاء ذكر الله وزيادة، فكل حديث في فضل الذكر يصدق عليه، وقد أمر الله عباده بدعائه فقال تعالى ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو يتضمن حقيقة العبودية والاعتراف بغنى الرب وافتقار العبد)[٣].

أقول: الدعاء هو سؤال العبد واستغاثته ربه عزَّ وجلَّ لجلب المنفعة أو دفع ضر أو ذكر له تعالى مع الخضوع واستحضار القلب عظمة الرب.

إنَّ أهمية الدعاء بالنسبة للمسلم لا تقل عن حاجته للطعام والشراب والهواء، فهذه من الأسباب لبقاء الأبدان والأرواح، وهي ذاتها تحتاج إلى سبب لتوفيرها، وسببها الأقوى هو الدعاء. إن المسلم يحتاج إلى الدعاء ليوفقه ربه إلى الهداية والرعاية بل يحتاج إلى كل ما يستقيم به أمر دنياه وأخراه, من حكمة الله عز وجل في خلقه أن جعل كونه مبنياً على الأخذ بالأسباب, فهو بكل شيء عليم و على كل شيء قدير قال تعالى ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾ [هود: ٦]، ومع هذا فقد قال: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

---

(١) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، ١٠٥/٣.

(٢) مجمع البحرين، للإمام الطريحي، ١٤١/١.

(٣) سبل السلام شرح بلوغ المرام، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، دار الحديث، القاهرة، ٦٩٧/٤.

إنَّ الله تعالى تكفَّل بحفظ كتابه، وقادر على إهلاك أعدائه، ولكنه عز وجل أمر نبيه والمؤمنين بمجاهدة الكفار والمشركين قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨].

والإنسان مأمور بالأخذ بالأسباب لبلوغ الغايات وأقوى هذه الأسباب هو الدعاء الذي به ينال الداعي عون الله وتوفيقه. والدعاء سلاح المؤمن, ولأهمية الدعاء نجد أنَّ الحق عزَّ وجلَّ افتتح كتابه العزيز بالدعاء, بعد حمد ذاته والثناء عليها ـ وتمجيدها ـ قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وختم كتابه المجيد بالدعاء في سورتي الفلق والناس.

إنَّ لجهابذة علماء المسلمين أقوال في الدعاء تبين أهميته، ونذكر هنا على سبيل المثال بعضاً من هذه الأقوال:

قال العلامة أبو حامد الغزالي: (الدعاء أفضل العبادات، وأنجح القربات، وأسمى الطاعات)[1].

وقال العلامة القشيري عن الدعاء: (هو حق الله، فإن استجاب فهو زيادة، وإن لم يستجب له، ولم يصل إلى حظ نفسه، فقد قام بحق ربه، فإنَّ الدعاء إظهار فاقة العبودية).

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، للإمام محمد بن علان الصديق الشافعي، طبعة المكتبة الإسلامية، ٢٣٤/٧-٢٣٦.

وقد قال أبو حازم الأعرج: (لأن أُحرم الدعاء أشد عليَّ من أن أُحرم الإجابة، أي لأنَّ الدعاء حق الله تعالى والإجابة حق العبد)[1].

قال العلامة ابن القيم: (لما كان الصحابة ﷺ أعلم الأمة بالله ورسوله، وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم، وكان عمر ﷺ يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنده، وكان يقول للصحابة: لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء) وكان يقول: (إني لا أحمل هم الإجابة، بل أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء معه فإنَّ الإجابة معه).

وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفيك ما علمتني الطلبا[2]

هذه بعض أقوال علماء المسلمين في أهمية هذه العبادة (الدعاء)، ولكن قد يقول قائل: ما فائدة الدعاء إذا كان كل أمر يطرأ بقضاء الله وقدره؟ يقال له: إنَّ من القضاء رد البلاء بالدعاء, والدعاء هو سبب من الأسباب لرد القضاء كالحصن للمجاهد وكإغلاق الدار من السطو عليها, روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً (إنَّ البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)[3].

سئل العز بن عبد السلام هل يجوز أن يقال لا حاجة إلى الدعاء إذ لا يرد قضاء ولا قدر؟ فأجاب من زعم عدم الحاجة إلى الدعاء فقد كذب وعصى

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، ص ١٦.

(٣) رواه الحاكم في الأوسط، والبزار والطبراني في الأوسط.

ويلزمه أن يقول لا حاجة بنا إلى الإيمان والطاعة، لأن ما قضاه الله من الثواب والعقاب حاصل، ولا يدري هذا الأحمق أنَّ مصالح الدارين قد رتبها الله تعالى على الأسباب، فإن بناه على أن ما سبق له لا يغيره الدعاء لزمه أن لا يأكل ولا يشرب إذا جاع أو عطش، ولا يتداوى إذا مرض، وأن يلقى الكفار بلا سلاح، ويقول في ذلك كله: ما قضاه الله تعالى لا يرد، وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل. وما أجرأ هذا الشخص على الجرأة بإنكار الشرع. وحاصله أنَّ الإيمان بالقضاء لا يقتضي ترك الأسباب؛ فالله تعالى قدَّر الأمر وقدَّر سببه[1].

وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: (الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل)[2].

إنَّ الطفل منذ وضوعه في رحم أمه يبدأ بالدعاء: (اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا)[3].

وهو ينتقل من طور إلى طور في الرحم تصاحبه وتلاحقه الدعوات, وكذلك الأم تلهج ألسنة المحبين لها بالدعاء, وعند خروج الطفل أول وهلة إلى الحياة يخاطب بالدعاء: (أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لأمة)[4]، والطفل ينتقل من حال إلى حال ومن مرحلة إلى مرحلة يحتاج إلى الدعاء في حالة اليقظة والنوم وفي الحركة والسكون وهو يشق طريقة

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، محمد بن علان الصديق الشافعي، ٢٣٣/٧-٢٣٤.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط، وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري في كتاب بدء الخلق برقم ٣٠٣١، ومسلم في كتاب النكاح برقم ٢٥٩١.

(٤) سنن الترمذي، كتاب الطب، برقم ١٩٨٦.

ويكابد سبل الحياة ليؤدي مسؤولياته , وعند مفارقته للحياة يودعه أهله بالدعاء: (اللهم إن كان محسناً فزد في إحسانه، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، اللهم أكرم نزله، ووسع مدخله.....) وهو في حياة البرزخ حاجته للدعاء كحاجة الحي للماء والهواء. والدعاء هو الذي ينفعه قال رسول الله ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)[1].

عن مالك عن يحيى بن سعيد أن سعيد بن المسيب كان يقول: (إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده وقال بيده نحو السماء فرفعها)[2] وبعد النشور وعند فصل الخطاب وحتى يأخذ موقعه السرمدي في دار القرار يحتاج إلى الدعاء قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

جاء الإسلام لهداية البشرية وسعادة الإنسانية وتحرير الناس من الأوهام والخرافات ومن التشبث بما لا يملك لهم ضراً لا نفعاً, فعلم الناس من يدعون وممن يطلبون حاجتهم وكيف يطلبونها. إنَّ واقع الناس العملي اليوم يبيِّن لهم حاجتهم إلى دعاء خالقهم الحكيم العليم القوي العزيز.

إنَّ الشاب والشابة المقبلان على الحياة الزوجية التي يتمنيان فيها سعادتهما ويجهل كل منهما الكثير عن الطرف الآخر، وكيف تبدأ هذه الحياة وتستمر

(١) صحيح مسلم، كتاب الوصية، برقم ٣٠٨٤.

(٢) تنوير الحوالك على شرح موطأ مالك، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، طبعة دار الكتب العلمية، ٢١٩/١.

والأب يتقدم إليه الخُطَّاب لابنته، وللأم وهي تتمنى حياة سعيدة لابنتها، ولا تعرف من يكون ذاك الذي يحقق رغبتها, والطالب وهو يختار تخصصه ويقدم لجامعة أو كلية متخصصة, والتاجر وهو يتأهب للسفر لجلب البضاعة أو اختيار نوع منها، ومدير المصلحة وهو يتردد في اختيار من يصلح للموقع المعين, والقائد العسكري وهو يتأهب لخوض المعركة، وإمام المسلمين وهو يعيِّن حكومته، ويقلد من يظنه مناسباً لأي موقع من المواقع, بل كل أصناف المجتمع المسلم بمختلف مواقعهم وأحوالهم يحتاجون إلى الدعاء, إلى هؤلاء جميعاً و إلى غيرهم يعلمهم الرسول ﷺ دعاء الاستخارة (عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: "إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: (اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال عاجل أمري وآجله – فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه, وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمرى – أو قال عاجل أمري وآجله – فأصرفه عني واصرفني عنه، وأقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به) قال: ويسمي حاجته[1].

إنَّ الأدعية تتنوع لتشمل كل احتياجات الإنسان من صحة وغنى وقضاء دين وأمن من عدو ونجاح ....الخ فالأدعية كالدواء الذي يعالج كل الأدواء. عن

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، برقم ٥٩٠٣، ١٦٢/٧.

أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجَّل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) قالوا: إذن نُكثِر؟ قال : الله أكثر)[1]، كما أن الدعاء هو السلاح القوي للمؤمن وللجماعة المؤمنة وللأمة المسلمة إذا ما ادلهمت الخطوب واشتد الأمر وقل النصير وتكالب الأعداء.

إنَّ الأمة المسلمة اليوم في موقف لا تحسد عليه وقوتها لا تضاهي ولا تقارب قوة أعدائها المادية. والحليم من الأمة أصبح حائراً والغيور على دينه صار متهماً، ولكن المخرج القريب بعد الأخذ بالأسباب وتزكية النفوس هو الدعاء , الدعاء وفق شرطه قال: رسول الله ﷺ: (الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض)[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (لا ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإنَّ الدعاء ليصادف البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)[3].

لأهمية الدعاء نجد أن علماء الإسلام قد أفردوا له مؤلفات منذ عصور التدوين الأولي للعلوم الشرعية، وعبر العصور وإلى يومنا هذا، وقد أفرد علماء السنة في كتبهم أبوابا أو كتباً للدعاء نذكر في هذا البحث **نماذج لما كتب عن**

(١) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، برقم ١١١٤٩، ١٨/٣.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه.

(٣) شرح الزوقاني على موطأ مالك ، للإمام محمد الزوقاني، طبعة دار الفكر، ٣٢/٢، وفي المستدرك، برقم ١٨١٣، ٦٦٩/١ بلفظ: (لا يغني حذر...).

الدعاء على سبيل المثال لا الحصر لنثبت اهتمام العلماء بهذا الموضوع المهم في حياة كل مسلم ومن ذلك:

[١] الدعاء لأبي عبد الرحمن محمد عزوان الضبي المتوفى سنة ١٩٥هـ.

[٢] مجابو الدعوة لأبي بكر عبد الله محمد بن عبيد بن سفيان المشهور بابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٠٨هـ.

[٣] كتاب الدعاء لأبي داود السيستاني صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥هـ.

[٤] كتاب الدعاء لأبي عبد الله محمد بن قطيس الأندلسي الألبيري (ت ٣١٦هـ).

[٥] دعاء أنواع الاستعاذات من سائر الافآت والعاهات لأحمد بن جعفر ابن محمد أبو الحسين بن المنادي.

[٦] كتاب الدعاء في مجلد كبير لأبي القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب المتوفى سنة ٣٦٠هـ.

[٧] كتاب الدعاء لأبي ذر الهروي شيخ الحرم عبد الله بن أحمد بن محمد الأنصاري المتوفى سنة ٤٣٤هـ.

[٨] حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المشهور بالأذكار النووية للإمام النووي يحيى بن شرف الدين الشافعي (ت ٦٧٦هـ).

[٩] فض الوعاء في أحاديث رفع اليدين في الدعاء وكتاب إلاصابة في الدعوات المستجابة للإمام جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

[١٠] كتاب الدعاء للدكتور محمد السيد طنطاوي.

[١١] فقه الأدعية والأذكار لعبد الرزاق بن عبد المحسن اليدر.

المبحث الثاني
فضل الدعاء ومقامه

إنَّ الغاية من خلق الإنسان هي عبادة ربه وخالقه قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، والعبد المؤمن في كل ركعة من صلاته يعاهد ربه عز وجل بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥].

والعبادة هي التذلل والخضوع لله جل جلاله ومن أبرز أنواع الخضوع والتذلل هو شعور الإنسان بضعفه وافتقاره إلى خالقه والاستعانة به في كل أحواله لهذا فإنَّ منزلة الدعاء في الإسلام عظيمة جداً ومكانته عالية لأنه من أجلّ الطاعات وأفضل القربات وقد جاءت النصوص تؤكد هذا المعنى فتارة ترد بلفظ الأمر ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

قال الإمام الفخر الرازي في هذه الآية: "لما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع لا جرم أمر الله تعالى به في هذه الآية فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

ولأبي يعلى عن أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه في حديث: (وأما الذي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة)[1]. قد ورد الوعيد الشديد على ترك الدعاء قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ في معنى هذه الآية أي يستكبرون عن دعائي عن ثابت قال قلت لأنس: يا أبا حمزة أبلغك أنَّ الدعاء نصف العبادة, قال: لا بل هو العبادة كلها)[2].

ذكر صاحب "عون المعبود شرح سنن أبي داود" عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: "الدعاء هو العبادة" أي هو العبادة الحقيقية التي تستحق أن تسمَّى عبادة لدلالته على الإقبال على الله والإعراض عما سواه بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه قائماً بموجب العبودية، معترفاً بحق الربوبية, عالماً بنعمة الإيجاد وطالباً لمدد الإمداد على وفق المراد وتوفيق الإسعاد كذا في المرقاة.

وقال الشيخ في "اللمعات": الحصر للمبالغة وقراءة الآية تعليل بأنه مأمور به فيكون عبادة أقله أن يكون مستحبه وآخر الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ والمراد بعبادتي هو الدعاء, لخوف الوعيد ينظر إلى الوجوب, لكن التحقيق أن الدعاء ليس بواجب والوعيد إنما هو على الاستكبار. ا هـ.

---

(١) شرح الزوقاني على موطأ الامام مالك، للإمام محمد الزرقاني، طبعة دار الفكر، ٣٢/٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، طبعة دار الفكر، ٧٩/١٢.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قيل: استدل بالآية على أن الدعاء عبادة لأنه مأمور به، والمأمور به عبادة, وقال القاضي: استشهد بالآية لدلالتها على أن المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط والمسبب على السبب ويكون أتم العبادات. ويقرب من هذا قوله: (مخ العبادة) أي خالصها.

وقال الطيبي ـ رحمه الله ـ يمكن أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي وهو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله تعالى والاستكانة له. وما شرعت العبادة إلا للخضوع للبارئ وإظهار الافتقار إليه. وينصر هذا التأويل ما بعد الآية المتلوة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار, ووضع عبادتي موضع دعائي, وجعل جزاء ذلك الاستكبار الهوان والصغار[1].

إن الدعاء من فضله الأكبر والأعظم يكون نسبياً في نجاة الداعي عندما تنقطع به الأسباب حتى ولو لم يكن موحداً قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٧]. هذه الآية تصور مشهداً في البحر والأمواج تتلاطم بجانبي المبحرين فيداخل نفوسهم الخوف والفزع عندها لا يجد هؤلاء مكاناً لدعاء آلهتهم المزعومة من المخلوقات، وإنما يرجع الإنسان إلى فطرته التي فطر عليها فيعرف خالقه، ويلجأ إليه بالدعاء، فيستجيب الله استغاثته وهو عز وجل يعلم

(١) عون المعبود شرح سنن أبو داود، للعلامة أبو الطيب محمد شمس الدين، ٣٥٢/٤-٣٥٣.

كفره بعد نجاته ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فأي فضل أعظم من هذا؟

ومن فضل الدعاء أنه يكون سبباً في قضاء حاجة الإنسان المستعصية والملحة فهذا نبي الله زكريا بعد أن بلغ من العمر ما بلغ هو وزوجه وقنطا من الولد حسب العادة والمألوف في عرف الناس لجأ إلى الله تعالى بالدعاء، عبَّر عن ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٢-٦]، فكان الرد من الله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ﴾ [مريم: ٧].

إنَّ في القرآن الكريم الكثير جداً من أدعية الأنبياء والمرسلين عند الشدائد والكروب، وفي مواقف مع أقوامهم الأشداء الألداء، فيكون بعد الدعاء الاستجابة والأمن والرخاء.

إنَّ السُّنَّة النبوية أوردت لنا عدداً ليس باليسير من الأحاديث في فضل الدعاء نورد منها كأمثلة ونماذج: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (ليس شيء

أكرم على الله من الدعاء) قوله: (ليس شيء) أي من الأذكار والعبادات لأن فيه إظهار الفقر والعجز والتذلل والاعتراف بقوة الله تعالى وقدرته[1].

وفي حديث أنس ﷺ يشبه الدعاء بأنه لب العبادة وخالصها قال عليه السلام (الدعاء مخ العبادة) قال عنه العلامة ابن العربي: (بالمخ تكون قوة الأعضاء فكذا الدعاء مخ العبادة به تتقوى عبادة العابدين فإنه روح العبادة)[2].

إنَّ فضل الدعاء لا ينكره إلا مكابر، ومن لم يتعظ بالقرآن فليتعظ بحوادث الزمان، فكثير من الحالات التي تمر بمجموعة من الناس وحسب العرف والعادة ومنطق العلم التجريبي يكون المصير الهلاك والدمار ولكن تتواتر الأخبار بأنَّ الدعاء هو الذي غير مجري الحدث، فكان ما هو خارق للعادة، فتتدخل عناية الله بعد أن تنسد كل الاحتمالات، وتنقلب الموازين وتكون النجاة.

إنَّ الطب مع تقدمه وتطوره عجز عن علاج كثير من الأمراض. منْ منا لم يسمع بإنسان ثقة عجز أطباء العالم عن إيجاد دواء لدائه فلجأ إلى من يظن استجابة دعائه، وبعد فترة وجيزة زال الداء وعجز عن تفسير هذه الظاهرة الأطباء إلا أن يقول المؤمن منهم هي من الله هذا كله يرجع إلى فضل الدعاء.

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، طبعة دار الفكر، ٣١٠/٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣١١.

المبحث الثالث
حث الإسلام على الدعاء

لما كان الدعاء بتلك الأهمية وحاجة المؤمن إليه لا تنقطع والدعاء له من الفضل ما يجعل العبد مرتبطاً به وهو مخ العبادة وجاء الإسلام لسعادة الإنسان والارتقاء به في تفكيره وتعلقه بعالم الغيب والشهادة القوي العزيز وجاء القرآن ونبي الإسلام ليحرر الإنسان من الخرافة والدجل والتشبث والافتقار إلى المخلوقين لهذا كله جاءت نصوص القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين تحث وترشد وتوجه الناس إلى الدعاء بعبارات وبأساليب شتي, جاءت بصيغة الأمر في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

ذكر في تفسير هذه الآية (حكي قتادة عن كعب الأحبار قال: أعطيت هذه الأمة: ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلهم الاثنين: كان إذا أرسل نبي قيل له: أنت شاهد على أمتك وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكان يقال للنبي: ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴾ [الحج: ٧٨]، وكان يقال للنبي: ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ ﴾ [غافر: ٦٠].

روى خالد الربعي يقول: "عجبت لهذه الأمة قيل لها: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة وليس بينهما شرط, قال له قائل: مثل ماذا؟ قال مثل قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، فها هنا شرط, وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل لهم الأنبياء ذلك"[1].

قد يكون الحث على الدعاء بأسلوب منطقي وحجة عقلية تفهم السامع بأنَّ المستحق للدعاء وحده هو الله قال تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل عليَّ طاوس فقلت له: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري قال هذا الرجل: كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق من طريق غير مسلوكة فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها, فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمَّر وجمع عليه ثيابه، وسل سكيناً معه

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ٣٢٧/٨.

وقصدني ففرت من بين يديه، وتبعني فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه فقال هو لي: إنما أريد قتلك فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال: عجِّل، فقمت أصلي فأرتج عليّ القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه أفرغ فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمي بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت ؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء, فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً"[1].

لأهمية الدعاء وفضله وحاجة المؤمنين إليه يتنوع الأسلوب القرآني في توجيه العباد إليه على طريقة القرآن البلاغية فها هي الآيات تخاطب المسلم الأول محمد ﷺ فيقول له الرب عز وجل ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، في الآيات التي وردت بصيغة يسألونك كما في قوله تعالى: ﴿ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، جاء الرد بقوله تعالى ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وفي قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ

(١) تفسير القرآن العظيم، لابي الفداء إسماعيل بن كثير، طبعة دار الفتح للإعلام العربي، ٣٥١/٣-٣٥٢.

مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] الخ وفي الآية جاء التعبير مخالفاً للمألوف ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وذلك من وجوه ذكرها صاحب التفسير الكبير فقال: (لم يقل: فقل إني قريب فتدل على تعظيم حال الدعاء من وجوه:

الأول: كأنه سبحانه و تعالى يقول عبدي أنت تحتاج إلى واسطة في غير وقت الدعاء أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك.

الثاني: إن قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ يدل على إن العبد له قوله (**إنني قريب**) يدل على أن الرب للعبد.

ثالثهما: لم يقل: فالعبد مني قريب، بل قال: أنا منه قريب وفيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو في مركز العدم وحضيض الفناء, فلا يمكنه القرب من الرب أما الحق سبحانه فهو القادر من أن يقرب بفضله وبرحمته من العبد والقرب إلى العبد لا من العبد إلى الحق فلهذا قال ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾.

والرابع: إن الداعي ما دام يبقي خاطره مشغولاً بغير الله فانه لا يكون داعياً له فإذا فني عن الكل صار مستغرقاً في معرفة الأحد الحق, فامتنع من أن يبقي في هذا المقام ملاحظاً لحقه وطالباً لنصيبه فلما ارتفعت الوسائط بالكلية, فلا جرم حصل القرب فانه ما دام العبد ملتفتاً إلى غرض نفسه لم يكن قريباً

من الله تعالى، لأنَّ ذلك الغرض يلهيه عن الله. فثبت أنَّ الدعاء يفيد القرب من الله فكان الدعاء أفضل من العبادات)[1].

إنَّ المتتبع للسُّنَّة النبوية يجد كثيراً من أحاديث الرسول ﷺ التي توضح حث الناس وتوجيههم إلى دعاء ربهم عز وجل ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار, وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني. فأعطيت كل وإنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[2].

---

(١) انظر: التفسير الكبير، فخر الدين الوازي، طبعة دار الفكر، ١٠٧/١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، برقم ٤٦٧٤.

هذا يدلُّ ويبين ويقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله في جلب منافعهم ودفع مضارهم الدنيوية والأخروية ومن لم يتفضل الله عليه بذلك فإنه سيحرم ولا أحد مهما بلغ من القوة والولاء له والإيثار يستطيع أن يبلغه مراده .

وقد استدل خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام على هذا الأمر وسجل له القرآن الكريم خطابه لقومه بذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٣].

وفي الحديث دليل على أن الله تعالى الكريم المتفضل يجب أن يسأله خلقه جميع حاجاتهم وفي الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قال: يا رب إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فاستحي أن أسألك قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك[1].

وفي بعض الاسرائيليات يقول الله عز وجل: أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم ويرجى غيري ويطرق بابه بالبُكرات وبيدي مفاتيح الخزائن وبابي مفتوح لمن دعاني, من ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به دونها. أو من ذا الذي رجاني لعظيم جرمه فقطعت رجاءه. أو من ذا الذي طرق

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الحديث من جوامع الكلم، للإمام زين الدين أبي فرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي البغدادي، طبعة دار الفكر، ص ١٩٧-٢٠١.

بابي فلم أفتحه له, أنا غاية الآمال فكيف تقطع الآمال دوني، أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي, فما يمنع المؤملين أن يؤملوني, لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع و بلغت كل واحد منعم أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة كيف ينقص ملك أنا قيمه, فيا بؤساً للقانطين من رحمتي, ويا بؤساً لمن عصاني وتوثب على محارمي[1].

وقال القائل:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مضر منك بالدين

واسترزق الله مما في خزائنه فإنما هي بين الكاف والنون

ومما جاء عنه ﷺ في أمره للناس وإرشادهم إلى الدعاء ما رواه الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ عن معاذ بن جبل ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (لن ينفع حذر من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء عباد الله)[2].

كما أنَّ مما يحث الإنسان ويدفعه إلى الدعاء ثقته في ربه عز وجل واطمئنانه بالاستجابة إذا خلا الدعاء من المعصية. عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٧-٢٠١.

(٢) مسند الإمام أحمد، مسند الأنصار، برقم ٢١٠٣٣.

إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة, وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا: إذاً نكثر. قال: الله أكثر)[1].

والإثم كأن يقول الداعي: اللهم أعني على قتل فلان أو يسِّر لي شرب الخمر، وأما قطيعة الرحم فهي من الإثم ولكنها خصت بالذكر لمكانتها فهو من ذكر الخاص بعد العام كأن يدعو الداعي أن يباعد بينه وبين أقاربه أو يطلب إحداث فتنة بينه وبين أقاربه ورحمه.

هنالك أحاديث تبين شدة وعيد الله تعالى على التاركين لدعائه لأن فاعل ذلك يعد مستغنياً عن الله أو متكبراً, عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ: (إنه من لم يسأل الله يغضب عليه)[2].

إنَّ ترك ما يغضب الحق عز وجل يُعَدُّ من أوجب الواجبات ويقوي هذا الحديث قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، عند من فسَّر العبادة هنا بالدعاء كما مر آنفاً عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل "أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني"[3]. في هذا المعنى يقول القائل الحكيم:

لا تسألن بني آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُني آدم حين يسأل يغضب

(١) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة برقم ١٠٧٠٩.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام المباركفوري، طبعة دار الفكر، ٣١٣/٩.

(٣) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٢٦٨/١٤.

بعد هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية لا ينبغي لأحد أن يغفل عن الدعاء بل يجعله ملازماً لحياته مصاحباً لحركاته وسكناته.

المبحث الرابع
الدعاء حق لله تعالى

تبيَّن من الأدلة القاطعة أنَّ الدعاء هو العبادة قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقد مضي قريباً بيان معناها.في السنن (عن النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:"الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾"[1].

لما كان الدعاء هو العبادة بمنطوق المعصوم ﷺ فالعبادة حق خالص للخالق سبحانه و تعالى بل هي الغاية التي من أجلها خلق الثقلين فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

(١) سنن الترمذي رقم ٣٢٤٧.

إنَّ الجن والإنس خلقهم الله لمعرفته وعبادته وحده والعبادة هي غاية الذل والخضوع وهذا المعنى هو الذي يتمثله الداعي. ولما كان الأمر كذلك فلا يجب شرعاً ولا عقلاً أن تخضع الجوارح وتذل لغير خالقها الغني الحميد، بل الخلق بأسرهم مأمورون بالتوجه والدعاء إلى رب العالمين قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

إنَّ الله تعالى متفرد بالحياة والإلوهية، والإله الحق هو الجدير وحده بالالتجاء إليه، لذلك جاء الأمر بدعائه وحده ودعاؤه يفتقر إلى إخلاص له عز وجل فيجب ألا يشرك الداعي مع الله كائناً من كان في دعائه، كيف لا وأعظم سورة في القرآن وفاتحة الكتاب التي يتلوها المسلم صباح مساء بل تتكرر قراءتها في اليوم الواحد وقد تصل إلى عشرات المرات، وفي كل مرة يعاهد العبد ربه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذه العبارة ـ كما هو مقرر في علم اللُّغة العربية ـ تفيد الحصر والاختصاص أي نخصك أنت وحدك يا الله بالعبادة و كذلك بالاستعانة.

إنَّ القرآن الكريم هو دستور الإسلام جاء ليحرِّر الناس من الخرافة واستعباد الطغاة للمخلوقين مهما تنوعت أساليبهم ومهما قويت قدراتهم فهم لا يملكون للإنسان جلب النفع أو دفع الضر إلا بإذن الله قال تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

قال الإمام القرطبي: (هذا خطاب توبيخ وفيه إضمار أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك عليكم فإنهم لا يملكون ذلك ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي ما لواحد من هؤلاء من معين على خلق شيء. بل الله المتفرد بالإيجاد فهو الذي يُعبد وعبادة غيره محال)[1].

إنَّ بعض الناس في حالة الشدة والضيق والخطوب المدلهمة يتذكر الله ويفرد له سبحانه بالدعاء وعندما تزول هذه الشدائد أو تقل يشرك مع الله أحداً من المخلوقين وهذا هو عين الظلم والجهل وعدم الإنصاف لله الواحد الخالق قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، هذه الآية وأمثالها نزلت ابتداءً في المشركين ولكنها تجر بذيلها وتدخل من اتصف بصفاتهم وإن نطق بالشهادتين ومن نوع الإشراك بالله في هذه الحالة أن يقول الإنسان لولا الله والربان أو السائق الحاذق لغرقنا أو انقلبت العربة فيشرك مع الله السائق الماهر معتقداً تأثيره وإشراكه مع الله.

إنَّ الآيات القرآنية في هذا السياق كثيرة جداً ومعانيها واضحة لأنها من أمور العقيدة ولكن مع هذا يوجد كثير من عامة المسلمين يدعون غير الله من الأنبياء والصالحين ويستغيثون بهم وهذا مالا يقبله الشرع ولا العقل و على

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.

العلماء الربانيين أن يبينوا حقيقة ذلك وخطره على الدين و على عوام المسلمين.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الأمر ما نصه أن النصارى يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه مثل مار جرجس وغيره من القداديس, ويعبدون تلك الصور ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين, وينذرون لها النذور ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين. والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعي ويعبد فيظن داعيه أنه قد أتى أو يظن أنه الله قد صور ملكاً على صورته. فإنَّ النصراني مثلاً يدعو في الأسر وغيره مار جرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء وكذلك آخر غيره. وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد في هذه الأماكن فقال: هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه. وإنما تلك شياطين أضلت المشركين[1].

وهكذا يحسب كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت أو يستغيث به عند قبره ويسأله, وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره أو كلمه ببعض ما سأله عنه ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حياً حتى إني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى هذا الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، فتارة يكون الشيخ

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ٤٥٥/١٧.

نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهمهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال: هذا ملك صوره الله على صورتي, وجعل هذا من كرامات الصالحين, وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين, ويتخذهم أرباباً وإنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم[1].

ولهذا أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول: إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي وليستنجدني وليستوصني, ويقول: أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله وتضل أتباعه، فتحسِّن لهم الإشراك بالله, ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله, وأنها قد تلقي في قلبه: إنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك. فيظن هذا من خطاب إلهي القي في قلبه, فيأمر أصحابه بذلك, وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه في حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به وإعانتهم وغير ذلك. فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ, ويشعرونه أنه لم يمت ويرسلون إلى أصحابه رسائل بخطاب[2].

(١) المرجع نفسه، ١٧/٤٥٦-٤٥٧.

(٢) المرجع نفسه، ١٧/٤٥٧.

وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ, وكان فيه زهد وعبادة , وكان يحبني ويحب هذا الشيخ ويظن أن هذا من الكرامات, وأن الشيخ لم يمت, وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه.

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي فرأوني في الهواء وقد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد, مثل من أحاط به النصارى الأرمن ليأخذوه. وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ونحو ذلك, فذكرت لهم إني ما دريت بما جري أصلاً. وحلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا إني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات وأنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع. بل هو شرك وبدعة ثم تبين لي فيما بعد وبيَّنت لهم أنَّ هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به[1].

من هذا جميعاً ومن غير ما ذكر يتبيَّن أنَّ الدعاء هو حق خالص لله عزَّ وجلَّ والعقل السليم يأبى على صاحبه أن يصرف دعاؤه لغير خالقه الذي بيده ملكوت السموات والأرض.

(١) تفسير سورة الإخلاص، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، طبعة دار السلفية، ص ٢٣٥-٢٣٦.